



في لقاء مع مؤلفي من " الشاي إلى الأتاي ، العادة والتاريخ "
حين يتحول اليومي والمعتاد إلى موضوع للتاريخ *

كتاب من "الشاي إلى الأتاي العادة والتاريخ " ثمرة فكرة فرضت نفسها في أحد صباحات خريف 1990، خلال دردشة بين مؤلفي الكتاب عبد الاحد السبتي وعبد الرحمان الخصاصي ، حول " الثقافة العالمة والثقافة الشعببية " ليخرجا إلى الوجود بعد تسع سنوات ، هذا المؤلف الذي تعمدا فيه " التوفيق بين التناول التاريخي والتناول الثقافي والأدبي " كما تحدثا عن ذلك في اللقاء الذي قدم فيه الأساتذة محمد العيادي ، حسن رشيق ومحمد معروف الدفالي ، قراءة للكتاب بمكتبة الكرامة بالبيضاء.

لقد عشنا مغامرة حقيقية ، حيث خضنا في تاريخ واجتماعيات الغذاء وتعاملنا مع إنتاج أدبي متعدد المشارب واللغات ، وبالتالي واجهنا قارات معرفية لم نعهد التعامل معها فيما قبل . واضطررنا أحيانا للتوقف قصد استيعاب عدد من الأوليات في مجال تلك المعارف الجديدة ، هكذا وصف عبد الأحد السبتي وعبد الرحمان الخصاصي مؤلفا الكتاب دهشتهما التي ما فتئت تكبر كلما توغلا أكثر في البحث في موضوع "الشاي" ، كمفارقة غريبة تحول فيها من عنصر أساسي لدخول الاستعمار إلى خلق ثقافة مثيرة بالمغرب . تسجيل الشاي في مستوى الحدث والوصف الإثنوغرافي ، نلاحظ فيه تكاملا مثيرا بين المصادر المغربية والمصادر الأوربية ، فالأولى لم تهتم كثيرا بوصف جلسة الشاي ، لكنها سجلت التعثر الذي عرفته عملية تغلغل الشاي في داخل المجتمع المغربي ، والمقاومة التي لقيتها المادة الجديدة في بعض الأوساط ، بينما نجد الرحالة الأوربيين يسهبون في وصف طقس الشاي ويتركون الانطباع بأن العادة الجديدة عمت المجتمع المغربي بشكل سريع .

"الشاي" للأغنياء فقط

طقس الشاي هذا الذي يأخذنا إليه الكتاب عبر استعراض حضور الشاي أيضا في الأدب المغربي وفي القصيدة والأغنية ، حيث استشهد المؤلفان في بحثهما من بين النصوص الكثيرة بقصيدة للشاعر إبراهيم اوالحسين أوعدي نايت إخلف

أجرت اللقاء نجاة أبو الحبيب ، ونشر بجريدة الصحيفة عدد 61 ــ 4 ــ 10 دجنبر 1999.

حول "الأتاي" ، ووجدوا في تحليلها بأن الشاعر " يتحدث عن طقس "الشاي" وعن الشروط الأساسية لتحضير المشروب بالشكل المطلوب ، ولا تقتصر قيمة الأواني في جانب الاستعمال ، بل تستثير نظرة الشاعر ، فيرسم بواسطتها جملة من الاستعارات ، فهناك صورة الكون بأرضه وسمائه ، فالصينية هي الشمس ، والبراد هو القطب وسط السماء ، والكؤوس هي النجوم ، والمجمر هو الجحيم ، جلسة الشاي ، هي إذن انعكاس لهذا الكون الذي خلقه الله ، وهي أيضا صورة الفضاء الذي يلتقي فيه المؤمنون لعبادة الخالق في أوقات مضبوطة ودون سقف الجامع وجدرانه ، فالمجمر هو المئذنة ، والمقراج هو المؤذن ، والبراد هو الإمام والكؤوس هي جماعة المؤمنين . ولأن شرب الشاي في بداياته كان حكرا على الأغنياء وعلية القوم ، فإن الفقير كان يحرم عليه الاقتراب منه ، نظرا لغلاء ثمنه وغلاء الأواني التي يقام فيها إذا ما تعلق الفقير بالشاي ، واقترب من الصينية والكأس فإنه يسقط لا محالة في منحدر الديون والإفلاس ، إنه إنذار بإدمان جماعي يحس الشاعر بقرب حصوله كما أنه يحس بأنها خطة دبرها المستعمر لاحتلال البلد وامتصاص موارده ، فأوربا تقصف المغرب بمدافع يمثل الشاي بارودها وهي تصوب ضرباتها في اتجاه البطن حيث يسهل الاغتيال . فقصص الشاي لا تنتهي ، ويكتشف القارئ عبر هذا الكتاب أن مفاجأته لا حدود لها ، ابتداء من غزوه للغذاء المغربي وتعرضه للتحليل والتحريم .

خمر الفقهاء

الكتاب أعطيت فيه الكلمة الأولى للنصوص ، كما عبر عن ذلك الأستاذ عبد الأحد السبتي ، حيث يرجع كتاب" تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين " بأن أول من تناول الشاي بالمغرب هو عم السلطان العلوي محمد بن عبد الله (1790-1757)، زيدان ابن اسماعيل ، إذ يقال إن هذا الأمير أصيب بمرض نتيجة لإفراطه تناول المسكرات ، فتمكن طبيب نصراني من اشفائه بفضل تناول الأتاي محل الخمر . فالشاي يوضع في خانة المنبهات شاء مدمنوه أو كرهوا إلى جانب "القهوة" التي تعيد الحكاية بدايتها إلى كونها كانت مجرد نبات بري في أرض الحبشة ورد ذكر خصائصها الطبية عند مؤلفين مثل محمد بن زكريا الرازي وابن سينا ، ثم انتشرت زراعتها في اليمن في أواسط القرن 15 م حيث أقبل عليها المتصوفة المسلمون كمنبه يعين على السهر للتعبد وقراءة الأوراد . في حين تقول حكاية أخرى "إن الرعاة العرب لا حظوا أن أغنامهم كانت تأكل من ثمرة معينة فيبدو عليها نشاط غريب ، وقد أقبل الرعاة ذات مرة على هذه الثمار يتذوقونها ، فلم يستسيغوا طعمها فألقوا بها إلى نار موقدة ، فكانت لها رائحة زكية عبقة ، فعمدوا

بعد ذلك إلى شرب ماء هذه الحبوب بعد غليها فيه سموه "خمر الصالحين " إذ كانوا يستعينون بتأثيره على قيام الليل " . فيما تتحدث الأسطورة الصينية على أن "ظهور الشاي يعود إلى 2737 قبل الميلاد ، إذ أن الإمبراطور شين تونج ، مخترع الزراعة والطب ، قد أوصى العاهل رعاياه بتسخين الماء قبل شربه ، وفي يوم حار ، خرج للفسحة ، واستظل بشجرة برية وعندما إصابة العطش عمد 'إلى تسخين الماء ، فإذا بهواء خفيف يهب ويلقي ببعض أوراق الشجرة في الماء وحين شرب منه الإمبراطور وجد متعة فائقة في المشروب الجديد. وهنا يتساءل مؤلفا كتاب "من الشاي إلى الأتاي" ، كيف أثرت المنبهات في التاريخ الحديث لماذا ظهرت بأوربا مواد منبهة جديدة في حقب معينة ؟ هل كانت القهوة والشاي والتبغ مجرد مصادفة مرتبطة باكتشاف المستعمرات أم جاءت لتلبي حاجيات لم تكن موجودة من قبل وكيف يمكن تحديد تلك الحاجيات .

"الشاي" دواء قبل أن يكون غذاء

فالشاي كما يفيد الكتاب قطع مراحل أساسية في دخوله إلى المغرب بحيث :

ـ وصل الشاي إلى أوربا في ق 16 ، وظل المغرب يجهل المشروب المذكور طيلة ذلك القرن .تفيد مجموعة من المؤشرات أن الشاي دخل إلى المغرب خلال عهد السلطان اسماعيل في ق17 وعلى غرار ما حصل في بلدان أخرى فقد استعمل بكميات محدودة كدواء قبل أن يستهلك كشراب .

ـ ظل الشاي طيلة ق 17 مادة ينحصر استعمالها في البلاط والوسط المخزني حيث كان الشاي ولوازمه من بين الهدايا التي اعتاد السفراء الأوربيون أن يقدموها للسلطان وممثليه المحليين إلى جانب سكر القالب والثياب الرفيعة .

ـ في نهاية ق 18 وبداية القرن الموالي ، انحصر استهلاك الشاي في الوسط المخزني وعند كبار الأثرياء على العموم .

ـ وفيما بين الثلاثينات والستينات من القرن الفارط انتشر الشاي داخل الوسط الحضري .

ـ وفيما بين 1860-1878 وصل المشروب الجديد في البوادي المجاورة للمدن .

ـ وفيما بين 1880-1892 اتسع نطاق استهلاك الشاي داخل مجموع البوادي .

ـ في مستهل القرن الحالي ، كاد المشروب أن يعم الوسط الجبلي .

"الشاي" مرادف للعبة الجنس والمداعبة

وبالتالي فإن كان الشاي قد لعب دورا مهما في تاريخ المغرب فإنه يضعنا اجتماعيا أمام صورة غريبة تعكس المرحلة "الرجولية" التي طبعت الشاي في البداية حيث كان "الرجل " يتناول الشاي بمعزل عن المرأة ، وقد يقترن الشاي بمجالستها

لكنه حضور يؤكد التمييز بين نمطين مختلفين من العلاقات القائمة بين الجنسين . فالرجل يشرب الشاي مع العشيقة أو العاهرة . وتصبح أحيانا كلمة "أتاي" مرادفا للعبة الجنس والإغراء والرغبة ، وهذا لا يعني دائما إبعاد الزوجة الشرعية إذ يبدو أنه في بداية القرن الحالي كان الزوج الشاب في بعض الحواضر يشتري الشاي والسكر ويدخلهما خلسة إلى البيت وينتظر أن يختلي بزوجته ليشرب معها كؤوس الأتاي بعيدا عن أنظار الآباء والأقرباء والمسنين . يقترن الشاي إذن بلغة الدعابة والرغبة والمتعة فيحال على فضاء محجوب ، مثل ما تعودت المجتمعات الإسلامية على تحريم الشراب المسكر وحضوره في فضاءات غير معلنة ، إنه ليس مجرد تماثل نظري ، فالمصادر تؤكد ظاهرة استهلاك المشروبات المسكرة في المغرب منذ العصر الوسيط مثل أنواع الخمر والرب ، تصنع هذه المشروبات على نطاق محلي ، وتختص بعض المناطق أو المجموعات بأنواع معينة ، فقد عرفت بلاد سوس الأقصى بإنتاج "أنزير" وجبال اغمارة بصنع مشروب "الصامت" واختصت الجاليات اليهودية في عدد من المدن بإنتاج "الماحيا" ، إذن هناك مؤشرات تدل على أن جلسة الشاي كانت في المغرب في مستواها الطقوسي امتدادا لجلسة الخمور فحرمه طرف لأنه يشبه الخمر ودعا طرف آخر للاستمتاع به كبديل للخمر ، واتبع الشعراء في التغني به نموذج الخمريات حيث أسهبوا في وصف الجليس وأواني الأتاي" ولونه ومذاقه.

"با احماد" أول من تقلد منصب "مول أتاي"

أيضا ، فالشاي ارتبطت بداياته في المغرب بمظاهر وعلاقات تعبر عن التراتب الاجتماعي ، إذ انطلق الطقس من قصر السلطان ، حيث ظهرت هيئة "موالين أتاي" التي يوجد على رأسها مسؤول ، ويبدو أن أول من تقلد هذا المنصب هو احمد بن المبارك وصيف السلطان سليمان وحاجبه ، وقد أسس هذا الوصيف شبكة عائلية مخزنية دام نفوذها قرنا كاملا وإليها ينتمي احمد بن موسى المعروف ب "باحماد" حاجب السلطان عبد العزيز. هذه فقط محطات مختارة من كتاب "من الشاي إلى الأتاي" الذي قدم هذا المشروب عبر 375 صفحة بشكل أكثر توسعا وبحثا غير الكثير من النظرة العادية إلى "الشاي" ليخرجه من المعتاد واليومي إلى موضوع للتاريخ . يشهد أن المؤلفين عبد الأحد السبتي وعبد الرحمان لخصاصي قد توفقا في إعادة الاعتبار "للشاي" الذي انفرد المغاربة بإضافة "النعناع" له وتوثيقهما لمسيرته الطويلة قبل أن يصبح غذاء يوميا "للفقراء" بعد أن كان حكرا على الملوك والأغنياء .